الجزء الأول

محتويات الجزء الأول

		الصفحة
تصدير بقلم محسن مهدى	.....	٥
مقدمة المؤلف	.....	١٥
الفصل الأول	: ملامح أمريكا الشمالية	٢٨
الفصل الثانى	: أصل الأمريكيين الإنجليز، وأهميته لأحوالهم فى المستقبل	٣٦
الفصل الثالث	: أحوال الأمريكيين الإنجليز الاجتماعية	٥٢
الفصل الرابع	: مبدأ سيادة الشعب	٦٠
الفصل الخامس	: يجب أن ندرس أحوال الولايات المتحدة المختلفة قبل الكلام على حكومة الاتحاد فى جملته	٦٣
الفصل السادس	: السلطة القضائية فى الولايات المتحدة وأثرها فى المجتمع السياسى	٩٢
الفصل السابع	: الولاية القضائية السياسية فى الولايات المتحدة	٩٩
الفصل الثامن	: الدستور الاتحادى	١٠٤
الفصل التاسع	: كيف صح القول بأن الشعب هو الحاكم الفعلى فى الولايات المتحدة	١٥٤
الفصل العاشر	: الأحزاب فى الولايات المتحدة	١٥٥
الفصل الحادى عشر	: حرية الصحافة فى الولايات المتحدة	١٦١
الفصل الثانى عشر	: الاجتماعات السياسية فى الولايات المتحدة	١٦٩
الفصل الثالث عشر	: الحكومة الديمقراطية فى أمريكا	١٧٦
الفصل الرابع عشر	: الفوائد الحقيقية التى يجنيها المجتمع الأمريكى من الحكم الديمقراطى	٢٠٩
الفصل الخامس عشر	: سلطة الأغلبية غير المحدودة فى الولايات المتحدة، وعواقبها	٢٢٤

الصفحة

الفصل السادس عشر : الأسباب التى تقلل من طغيان الأغلبية فى الولايات المتحدة ٢٣٨

الفصل السابع عشر : الأسباب الأخرى الرئيسية التى يمكن أن تؤدى إلى صيانة الجمهوريات الديمقراطية فى الولايات المتحدة ٢٥١

الفصل الثامن عشر : الأجناس الثلاثة التى تسكن أقاليم الولايات المتحدة ، أحوالها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه فى المستقبل ٢٨٩

ختـــام : ٣٦٥

مقدمة المؤلف

لم أعجب من شيء من تلك الأشياء الجديدة التى استرعت نظرى فى أمريكا طوال المدة التى قضيتها فيها ، كعجبى الشديد من تساوى أفراد الشعب فى أحوالهم الاجتماعية ، ولكنى لم ألبث أن وقفت على ما لهذه الحقيقة الأساسية من عظيم الأثر فى مجرى شئون المجتمع كله ، إذ هى التى توجه الرأى العام اتجاهاً خاصاً ، وهى التى صبغت القوانين بصبغة معينة ، وزودت الحاكمين بمبادىء جديدة ، وأكسبت المحكومين عادات خاصة كذلك .

وسرعان ما اتضح لى أن التأثير البالغ لهذه الحقيقة ذاتها قد امتد إلى نزعة الدولة فى السياسة ، كما امتد إلى قوانينها ، وتجاوزها إلى غيرها . ولم يكن تأثيرها فى المجتمع المدنى بأقل منه فى الحكومة ، فقد خلقت هذه الحقيقة آراء جديدة ، وولدت فى الناس عواطف شتى ، واستحدثت عادات ، وعدلت ما لم توجده وبدلت فيه . وكلما تقدمت بى دراسة المجتمع الأمريكى ازددت ثقة بأن هذه المساواة فى الأحوال الاجتماعية هى الحقيقة الأساسية فعلا التى يبدو أن سائر الحقائق الجزئية مستمدة كلها منها . فهى النقطة المركزية التى كانت تنتهى إليها ملاحظاتى دائماً .

ولما وجهت فكرى شطر نصف الكرة الذى نعيش فيه نحن ، رأيت ما يشبه هذا المنظر الذى شاهدته فى الولايات المتحدة ، ولاحظت أن المساواة فى الأحوال الاجتماعية فيها ، وإن لم تصل بعد إلى المدى الذى وصلت إليه فى الولايات المتحدة ، تقترب باستمرار من ذلك المدى ، وتجلت لى الديمقراطية عينها التى تسود المجتمعات الأمريكية ، وقد أخذت تزداد قوة فى أوربا .

ومن هنا عنَّت لى فكرة وضع هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء .

فثَمَّ ثورة ديمقراطية كبرى قائمة الآن بين ظهرانينا فى أوربا . ومع أن هذه الثورة لا تخفى على أحد ، فالناس لا ينظرون إليها جميعاً من وجهة نظر واحدة ، فقد بدت لبعضهم ظاهرة جديدة كل الجدة ، ولكنها عارضة لا تلبث أن تمر ، وداعبهم الأمل بأنهم يستطيعون أن يقفوها عند حدها . وبدت لبعض آخر قوة لا قبل لأحد بمقاومتها . فهى فى نظرهم أكثر نزعات التاريخ استقراراً ، وقدماً ، وبقاء .

ثم إذا بى أعود بفكرى لحظة إلى ما كانت عليه فرنسا من سبعة قرون مضت ، عندما كانت البلاد كلها فى أيدى عدد قليل من الأسر ، يملك أربابها الأراضى ويتولون شئون الحكم ، وتتوارث ذراريها حق الحكم هذا جيلا بعد جيل ، مع ما تتوارثه من المال والعقار . وكانت القوة الغاشمة هى الوسيلة الوحيدة التى يؤثر بها الناس بعضهم فى بعض ، وكانت ملكية الأراضى والعقارات مصدر قوتهم الوحيد .

ولكن ما أن قامت قوة رجال الدين السياسية حتى تزايدت وانتشرت ، ففتح القسس صفوفهم لجميع الطبقات - فتحوها للغنى وللفقير ، وللسوقة وللنبلاء ، فدخلت المساواة دور الحكومة عن طريق الكنيسة . فمن كان يعيش من قبل قنًّا من أقنان الأرض يقضى حياته كلها فى عبودية متصلة ، استطاع أن يتبوأ مكانه بين الأشراف ، بوصفه قسيسا ، بل كثيرا ما بلغ مكانة أسمى من مكانة ذوى الرؤوس المتوجة أنفسهم .

وكلما ازداد المجتمع استقراراً ، واستبحر فيه العمران ، ازدادت العلاقات التى بين الناس تعقيداً وعدداً ، فمست الحاجة إلى وضع قوانين مدنية . وسرعان مابرز رجال القانون من خمول المحاكم وغرفها التى يعلوها التراب ليظهروا فى بلاط الملك جنباً إلى جنب مع البارونات الإقطاعيين الذين يرتدون الفراء ويلبسون الزرد واللأمات .

وبينما كان الملوك يقضـــون على أنفسهم بمشـــروعاتهم الضخام ، وكان الأشراف يستنفدون مواردهم فيما يشنونه بعضهم على بعض من حروب خاصة ، ومبارزات ، كانت طبقات الشعب الوطنية تثرى من التجارة ، وأضحى الناس يدركون ما للمال من قوة لها أثرها فى شئون الدولة ، وفتحت الأعمال طريقاً جديدة إلى القوة والسلطان ، وارتفع رجال المال حتى صاروا قوة سياسية يتملقهم الناس ويحتقرونهم فى آن واحد .

وشيئاً فشيئاً استفاضت الاستنارة وانتشر التعليم بين الناس ، وتكون فيهم ميل إلى تذوق الأدب والفنون ، وعاون العقل والإرادة على إحراز النجاح ، وصارت المعارف وسيلة إلى الحكم ، وأضحى الذكاء قوة اجتماعية ، وأسهم الرجل المتعلم فى شئون الدولة . وجعلت قيمة الأصل والحسب ، التى كان يقدرها الناس ويعلون من شأنها ، تنحط بسرعة كلما وقف الناس على مسالك جديدة توصلهم إلى القوة والسلطان . لقد كان الحصول على مرتبة « الأشراف » فى القرن الحادى عشر أمراً دونه كل ثمن . أما فى القرن الثالث عشر فقد أصبح شراؤها ميسوراً . فمنذ سنة ١٢٧٠ بدأت ألقاب « الشرف » تمنح لراغبيها . وهكذا دخلت المساواة الحكومة على أيدى الأرستقراطيين أنفسهم .

وكان أحياناً مايحدث فى هذه القرون السبعة الماضية أن الأشراف ، فى مقاومتهم سلطة التاج ، أو فى إضعافهم سلطة منافسيهم ، كانوا يمنحون الشعب شيئاً من السلطة السياسية ، وأكثر من ذلك أن الملك نفسه كان يسمح للطبقات التى دون طبقة الأشراف ، بقسط من الحكم بقصد الحد من سلطة الأرستقراطيين وكسر شوكتهم .

وكان ملوك فرنسا أنشط الناس دائماً وأثبتهم فى العمل على التسوية بين طبقات الشعب . فعندما يكونون أقوياء طاغين ، لم يألوا جهداً فى النهوض بالشعب إلى مستوى النبلاء ، أما عندما يكونون ضعافاً أو معتدلين فإنهم يمكنون للشعب من أن يسمو عليهم . وهكذا كان بعضهم يعاون الديمقراطية بمواهبه ، ويعاونه آخرون برذائلهم . فلويس الحادى عشر ولويس الرابع عشر نزلا بجميع الناس الذين دون مستوى العرش ، إلى مستوى واحد

من حيث الخضوع والإذعان . ثم جاء لويس الخامس عشر فهبط بنفسه وببلاطه إلى الأرض .

ولما أصبح فى استطاعة المواطنين أن يحوزوا الأراضى على أساس غير أساس النظام الإقطاعى ، وأصبحت الثروة الشخصية تؤدى بدورها إلى القوة والسلطان ، صار كل كشف يتم فى الفنون ، وكل تحسن يحدث فى شئون الاتجار بالسلع المصنوعة ، يخلق عناصر جيدة من عناصر المساواة بين الناس ، ومن ثم كان كل اختراع جديد ، وكل حاجة جديدة يحدثها هذا الاختراع فى نفوس الناس ، وكل رغبة تتطلب إرضاء ما ، كلها خطوات جديدة ، فى سبيل إيجاد مساواة عامة بين الناس ، فالميل إلى الكماليات ، وحب الحرب ، وسلطان « الموضة » الجديدة ، وأعمق الشهوات التى تعتلج فى نفوس الإنسان ، وكذلك أكثرها ضحولة وسطحية ، تتضافر كلها على إثراء الفقير وإفقار الغنى .

ومن يوم أن صارت الأعمال العقلية مصدر قوة وثروة ، صارت كل زيادة تضاف إلى العلم ، وكل حقيقة جديدة ، أو فكرة جديدة ، مصدر قوة فى متناول أفراد الشعب . فالشعر ، والبلاغة ، والذكريات ، وحلى العقل وزخارفه ، وحدَّة الخيال ، وعمق الفكرة ، وسائر المواهب التى تمنحها العناية الإلهية لمن تشاء من الناس - أدت كلها إلى العمل على مافيه صالح الديمقراطية . وحتى عندما تكون هذه المواهب فى خصوم الديمقراطية وأعدائها ، فإنها ماتزال مع ذلك تخدم الديمقراطية بإبرازها عظمة الإنسان الطبيعية جلية سافرة للعيان . وهكذا كثرت فتوحها بانتشار كل فتح جديد من فتوح الحضارة والعلم ، وأضحت الآداب أشبه بدور صناعة عامة مفتوحة الأبواب للناس جميعاً يدخلونها كل يوم ، الفقير منهم والضعيف ، ليتزودوا منها بالسلاح .

ويندر أن نجد فى تاريخنا حدثاً عظيماً واحداً من أحداث القرون السبعة الماضية لم يؤد إلى المساواة بين الناس .

لقد شتتت الحروب الصليبية والحروب الإنجليزية شمل الأشراف ، ووزعت أراضيهم ، وقامت الهيئات البلدية بإدخال الحرية الديمقراطية فى صميم البلاد الملكية الإقطاعية ، وسوَّى اختراع البارود بين السيد والتابع فى ميادين الحرب ، وفتح فن الطباعة المصادر كلها لعقول جميع الطبقات ، وجلب البريد العلم والمعرفة إلى باب صاحب الكوخ كما جلبها لصاحب القصر المنيف ، وقررت البروتستانتية أن كل الناس سواء فى تلمسهم الطريق إلى مرضاة الله ، وفتح استكشاف أمريكا آلافاً من الطرق الجديدة إلى الثروة ، وصل بالمغامرين المغمورين إلى الغنى والقوة . فإن نحن بدأنا بالقرن الحادى عشر ، وجعلنا نستقصى ما جرى فى فرنسا ، كل نصف قرن ، أدركنا أن فى آخر كل فترة من هذه الفترات حدثت ثورة مزدوجة فى أحوال المجتمع . فقد نزل النبيل درجات فى السلم الاجتماعى ، على حين صعد ابن الشعب فى ذلك السلم نفسه ، فهبط الأول وارتفع الثانى ، وكان كل نصف قرن يمضى يقرب الواحد من الآخر ، ولا يلبثان أن يلتقيا .

فالأحداث المختلفة التى جرت فى حياة الشعوب القومية ، تحولت فى كل مكان إلى ما فيه مصلحة الديمقراطية ، فعاون الناس جميعاً بجهودهم : من عمل منهم فى هذه السبل ، عن قصد ونية ، ومن عمل فيها على غير وعى منه ، من كافح فى سبيلها ، ومن أعلن نفسه خصماً صريحاً لها ، فكلهم انساقوا إلى السير فى اتجاه واحد وعملوا معاً على تحقيق غرض واحد . لقد كانوا كلهم أدوات طيعة صماء فى يد العناية الإلهية .

وهكذا يعد التطور التدريجى لمبدأ المساواة إذن حقيقة علوية تتصف بجميع الصفات التى لأمثال هذه الحقائق القدسية . فهو حقيقة عالمية باقية ، تأبى دائماً على بنى الإنسان أن يتدخلوا فيها ، ذلك إلى أن جميع الأحداث ، وجميع الناس قد أسهموا فى العمل على تقدم هذا المبدأ : مبدأ المساواة .

فهل من الحكمة أن نتصور أن حركة اجتماعية مثل هذه ترجع أسبابها إلى مثل هذه الفترة الطويلة يمكن أن تعطلها جهود جيل واحد ؟ وهل يجوز لنا أن نتصور أن الديمقراطية التى قلبت النظام الإقطاعى ، وقهرت الملوك والأقيال يمكن أن تنكص وتتراجع أمام جماعة التجار وأصحاب رءوس الأموال ؟ فهل يمكن أن تتوقف الآن هذه الحركة الديمقراطية بعد أن بلغت ما بلغت من القوة وبلغ خصومها ما بلغوا من الضعف ؟

فإلى أين نحن سائرون إذن ؟ لا ندرى . فوسائل المقارنة تعوزنا . وثَمَّ الآن مساواة كبيرة فى الأحوال الاجتماعية فى البلاد الأوربية أكبر مما كانت عليه فى أى عصر مضى ، وفى أى بلد آخر من بلاد العالم ، حتى أن جسامة ما قد تم فعلاً لتَحُول دون التنبؤ بما يمكن أن يتم .

إن الكتاب الذى نقدمه اليوم لجمهرة القراء قد وضع كله تحت تأثير نوع من الرهبة الدينية غشيت نفس المؤلف بعد أن شاهد تلك الثورة الديمقراطية التى لا تقاوم ، والتى ظلت تتقدم قروناً طوالا ، على الرغم مما وضع فى سبيلها من عراقيل ، والتى ما زالت تتقدم وسط الأنقاض التى كانت هى السبب فيها .

فليس من الضرورى أن ينزل الله على أنبيائه ما يكشف لنا صراحة عن معالم مشيئته التى لا ريب فيها ، فحسبنا أن نتأمل السنن الكونية العادية وندركها ونعرف نزعة الأحداث المستمرة واتجاهها ، فإنى لأعرف مثلا ، من غير حاجة بى إلى وحى خاص ، أن الكواكب تتحرك فى أفلاكها ، وهى أفلاك رسمتها لها يد البارىء .

فلو أن أهل عصرنا اقتنعوا ، بعد طول الملاحظة والتفكير السديد المخلص ، أن تطور المساواة الاجتماعية التدريجى ، السائر قدماً ، إنما هو تاريخهم الماضى ، وتاريخهم فى المستقبل كذلك - لأضفى هذا الكشف وحده على هذا التطور صفة مشيئة إلهية مقدسة ، ولاستبان لهم أن أية محاولة لتعطيل سير الديمقراطية تعد فى هذه الحالة معاندة لإرادة الله ، وعندئذ لا يكون أمام الأمم إلا أن تعمل ما استطاعت للاستفادة من حظها الاجتماعى الذى قسمته لها العناية الربانية .

تبدو لى الأمم الأوربية المعاصرة فى مظهر يدعو إلى الخوف ، بل إلى الفزع الشديد ، فالحركة التى تدفعها قد بلغت من القوة مبلغاً لايتسنى معه لأحد أن يقفها أو يعطلها ، ولكنها مع ذلك لم تصبح بعد من السرعة بحيث تجعلنا نيأس من السيطرة عليها وتوجيهها . فما زالت مصائر هذه الشعوب فى أيدى أهليها ولكنهم يخشى عليهم أن يفقدوا سريعاً القدرة على ضبطها والإشراف عليها .

فأول واجب من الواجبات المفروضة الآن على أولئك الذين يوجهون أمور الناس ، أن يولوا الديمقراطية ويتعهدوها بالتربية والتعليم ، وأن يوقظوا فيها معتقداتها الدينية من جديد ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وأن يطهروا أخلاقها مما علق بها من شوائب ، وأن ينظموا حركاتها ، ويحلوا المعرفة بالعلوم السياسية محل عدم الخبرة ، والشعور بالمصلحة الحقيقية محل النزعات الفطرية العمياء ، وأن يلائموا بين حكومتها وبين الزمان والمكان ، ويكيفوها بحسب الناس والأحوال . فما أشد حاجتنا إلى علوم سياسية جديدة ، تصلح لعالم جديد ! ومع ذلك فهذا أقل ما نفكر فيه . ومع أنَّا وسط تيار سريع فإنا نتعنت ونركز أنظارنا فى بعض الأنقاض التى مازلنا نراها ملقاة على الشاطىء الذى غادرناه ، على حين يحملنا التيار ويجرفنا إلى الوراء نحو الهاوية !

لم تتقدم الثورة الاجتماعية الكبرى التى وصفتها توًّا فى أية بلد من بلاد العالم الأوربى خطوات سراعاً مثلما تقدمت فى فرنسا ، إلا أن تقدمها هذا كان يجيء مصادفة ومن غير أى توجيه . فرؤساء الدول لم يستعدوا لها أى استعداد من قبل ، فكأنى بها قد تقدمت على الرغم منهم ، بل وبدون علمهم . فأقوى طبقات الأمة وأذكاها عقلا ، وأكرمها خلقاً ، لم تتصد لضبطها ، والإشراف عليها وإرشادها . فقد تركت الديمقراطية لنزعاتها الأولية الجامحة ، فنمت كما ينمو الأطفال الذين حرموا توجيه آبائهم وحصلوا على ما حصلوا عليه من تربية وتعليم من الشوارع العامة ، فلم يعرفوا غير رذائل المجتمع وما فيه من بؤس ومن شقاء . فكأن وجودها كان غير معروف إلى أن اكتسبت فجأة سلطة عظيمة ، وعندئذ خضع الجميع لأدنى أهوائها فى ذلة وهوان ، فعبدوها على أنها صنم القوة . وبعد أن وهنت من جرَّاء إسرافها على نفسها ، خطر للمشترعين خاطر أخرق ، وذلك أن يقضوا عليها بدلاً من أن يسعوا وراء تعليمها وتهذيبها واستصلاح ما بها من رذائل . فلم يبذلوا أى جهد فى إعدادها لأن تتولى الحكم ، بل عقدوا العزم على إبعادها عن نطاقه .

فكانت النتيجة أن حدثت الثورة الديمقراطية فى جسم المجتمع من غير أن يحدث معها تغيير يذكر فى القوانين والعادات والأخلاق ، وهو ذلك التغيير الذى كان يجب أن يتم حتى تكون هذه الثورة مفيدة حقاً . فلا عجب أن صارت لدينا الديمقراطية من غير ما يخفف ما فيها من مثالب ، ويبرز ما لها من ميزات طيبة . وعلى الرغم من أنَّا نرى ما تجره هذه الديمقراطية من شرور ، فما زلنا نجهل المنافع التى تعود علينا من ورائها .

وعندما كانت قوة التاج ، تؤيدها الأرستقراطية ، تحكم دول أوربا فى هدوء وسلام ، كان للمجتمع وسط ما فيه من بؤس ، عدة مصادر للسعادة لاتكاد تخطر الآن على بال أحد ، ولا يكاد أحد يقدرها قدرها . فالسلطة التى كان يستمتع بها نفر ضئيل من رعية الملك كانت تقف حاجزاً منيعاً يحول دون استبداده . فهذا الملك نفسه الذى كان يشعر بالصبغة الإلهية التى يستمتع بها فى نظر الجمهور ، صار يستمد من الاحترام الذى كان يوحى به إلى الشعب ، دافعاً يحفزه إلى مراعاة العدالة فى حسن استخدامه سلطته . وكان النبلاء على سمو مركزهم وارتفاعه عن مستوى مركز الشعب بمراحل طويلة ، يعنون بشئون هذا الشعب عناية هادئة رحيمة ، أشبه بعناية الراعى بقطيعه ، ومن غير أن يعترفوا بأن الفقراء مساوون لهم ، كانوا يرعون مصائرهم على أنها أمانة عهدت بها إليهم العناية الإلهية . فأفراد الشعب لم يتصوروا أبدا أية فكرة عن حالة اجتماعية تختلف عما هم فيه ، ولم يكونوا يتوقعون أبداً أن يصبحوا فى يوم ما مساوين لسادتهم ، فكانوا يحصلون على الخير منهم دون أن يناقشوهم فيما لهم من حقوق ، وكانوا يودونهم ويتعلقون بهم ماداموا متذرعين بالحلم والعدالة ، وقد خضعوا لابتزازهم ولتعسفهم ، فى غير مقاومة وفى غير تذلل ، خضوعهم لقدر الله وقضائه ، وفضلاً عن ذلك فالعادة والعرف كانا قد وضعا حدوداً للظلم وأنشآ نوعا من القانون وسط القوة والجبروت .

ولما كان النبيل لايخطر بباله أن أحداً يمكن أن تحدثه نفسه بأن يسلبه امتيازاته التى يعتقد أنها امتيازات مشروعة ، وكان الفقير يعد ماهو فيه من ضعف ومن قصور نتيجة نظام طبيعى ثابت ، كان من السهل علينا أن نتصور أن شيئاً من حسن النية والتفاهم قام بين هاتين الطبقتين المختلفتين كل الاختلاف من حيث ما قدر لكل منهما . فالتفاوت والبؤس كانا إذن فى المجتمع ، ولكن نفس أية طبقة من الطبقتين لم تنحط ولم تذل .

إن الناس لايفسدون بممارستهم السلطة ، ولا هم ينحطون ويذلون بالتزامهم عادة الطاعة والإذعان ، ولكنهم يفسدون بممارستهم لسلطة يعلمون أنها غير مشروعة ، وينحطون ويذلون لانقيادهم لحكم يعتبرونه مغتصباً وظالماً .

ففى ناحية ، نجد الثروة والقوة والفراغ وما يتبعها من السعى وراء المجد والشرف والكماليات ، واكتساب الأذواق الرفيعة والمتع العقلية وتعهد الفنون الجميلة ، أما فى الناحية الأخرى فلانجد غير الكدح ، وجفوة الطبع والجهل ، ومع ذلك لايخلو الأمر من أن نصادف وسط هذا الحشد من الجفاة والجهلة شهوات متأججة ، وعواطف كريمة وإيماناً بالدين راسخاً ، وفضائل متطرفة .

فإذا ما نظمت الجماعة على هذا النحو حق لها أن تفخر بما تنعم به من الاستقرار والقوة ، والمجد خاصة .

ولكن الصورة قد تغيرت الآن ، فزالت الفروق التى بين مراتب الناس تدريجياً ،

وتداعت الحواجز التى كانت تفصل بين بنى الإنسان ، وتوزعت الملكية ، واشترك كثيرون بنصيب فى السلطة والسلطان ، وانتشر بينهم ضوء العقل ، واتجهت قدرات الناس من مختلف الطبقات إلى المساواة ، فأضحى المجتمع ديمقراطياً ، وأخذ سلطان الديمقراطية يغشى تدريجياً النظم والعرف والعادات فى هدوء وسلام .

وهكذا نستطيع أن نتصور مجتمعاً يشعر فيه الناس جميعاً شعوراً متساوياً بالمحبة والاحترام للقوانين التى يعدون أنفسهم واضعيها ، وتكون سلطة الحكومة فيه (المجتمع) موضع احترام لأنها سلطة ضرورية ، وليست باعتبارها سلطة إلهية . ولا يكون إخلاص الرعية فيه لرئيس الحكومة صادراً عن هوى وعاطفة ، بل عن اقتناع هادىء يقوم على الفكر والروية . وإذ صار صاحب الحق يعرف أن حقه مكفول له . ولا يعتدى عليه ، قام بين الطبقات نوع من الثقة الجديرة بالرجولة . ومجاملة متبادلة بين بعضها وبعض ، بعيدة عن كل تصلف واستعلاء ، وعن كل ذلة وهوان . ولما كان الشعب يعرف حق المعرفة مصالحه الحقيقية ، فإنه سرعان ما يدرك أن عليه أن يقوم بأداء ما عليه من واجبات نحو الدولة حتى يستطيع أن يفيد من مزايا وجودها . فاتحاد المواطنين طواعية واختياراً ، يحل إذن محل سلطة الأشراف الفردية . وتصبح الجماعة بمأمن من الظلم . ومن التهتك والاستهتار .

لا أخفى أن المجتمع فى الدولة الديمقراطية التى قامت على هذا النحو لا يكون مجتمعاً جامداً راكداً . فدوافع الهيئة الاجتماعية يمكن أن تنظم فيه بشكل يجعلها تقدمية . وإن كان مثل هذا المجتمع أقل أبهة من المجتمع الأرستقراطى . فهو فى الوقت نفسه أقل منه بؤساً وشقاء . وقد تكون الملذات فيه أقل إسرافاً . ولكن الاستمتاع بوسائل الراحة والنعيم تكون أعم وأشمل ، وقد تكون العلوم فيه أقل انتشاراً ، ولكن الجهل فيه أقل ، وقد تكون عواطف الناس الجياشة فيه أقل حدة ، ولكن عادات الأمة تكون أرق وأكثر تهذباً . إن الرذائل تزداد ولكن الجرائم تستقل .

وفى حالة فقدان التحمس والولاء المتقد ، يصح أن يطلب إلى مواطنى الجماعة بذل تضحيات كبيرة بأن نلجأ إلى عقولهم وخبرتهم ، فكل فرد سيشعر بالحاجة نفسها إلى الاتحاد مع زملائه ليحمى ضعفه نفسه ، ولما كان يعلم أنه لا يستطيع أن ينال معونتهم إلا على شريطة أن يقدم لهم هو ما يستطيع من العون ، فسرعان ما يدرك أن مصلحته الشخصية تتفق ومصالح الجماعة بأسرها . قد تكون الأمة فى جملتها أقل تألقاً ، وأقل أمجاداً ، بل وربما أقل قوة أيضاً ، ولكن الغالبية من المواطنين سيستمتعون بقسط أوفر من الرخاء والازدهار . ويظل الشعب كله أكثر مسالمة ، لا لأن اليأس قد استولى عليه من قدرته على تغيير أوضاعه إلى ما هو خير منها ، بل لأنه صار يشعر أنه فى خير ورضى فعلاً .

فإن لم تكن نتائج هذه الحال طيبة أو نافعة كلها ، لاستولت الجماعة على كل ما هو طيب ونافع على الأقل . وبعد أن يكون الناس قد طلقوا إلى الأبد المزايا الاجتماعية التى كان يمكن أن تقدمها إليهم الأرستقراطية فإنهم سيحرزون كل الفوائد التى تستطيع أن توفرها لهم الديمقراطية .

ولنا أن نتساءل هنا عما أقمناه من مؤسسات واتخذناه من آراء وعادات بدلا مما خلفناه وراءنا أنقاضاً من مؤسسات أجدادنا ، وآرائهم وعاداتهم .

ولئن زالت روعة الملكية وفتنتها ، فإن جلالة القوانين لم تحل بعد محلها . ولئن تعلم الناس ازدراء كل سلطة إلا أنهم مازالوا يخشون بأسها ، وأن الخوف لينتزع منهم الآن من التوقير والمحبة أكثر مما كانوا يقدمونه منهما من قبل .

لقد دمرنا القوى الفردية التى كانت كل قوة منها تستطيع أن تصمد بمفردها فى وجه الاستبداد تصارعه ، ولكن الحكومة وحدها هى التى ورثت جميع المزايا التى انتزعت من الأسرة ومن النقابات الصناعية والأفراد . فقد حل ضعف الأمة كلها محل القوة التى كانت لفئة قليلة من المواطنين وهى قوة كثيراً ما كانت محافظة ، وإن كانت أحياناً ظالمة غشوما .

لقد قصّر تقسيم الملكيات مسافة الخلف التى بين الأغنياء والفقراء ، ولكن يبدو أنهم كلما تقاربوا وجدوا لهم أسباباً تزيد فى كراهيتهم بعضهم لبعض ، واشتد بهم التحاسد والخوف يدفعان كل فريق منهما إلى العمل على إبعاد الفريق الآخر عن القوة والسلطان . ففكرة الحق معدومة فى نظر كل منهما ، وأصبحت القوة وحدها هى الحجة فى الحاضر ، والضمان الوحيد فى المستقبل .

احتفظ الفقير بالأمور التى كان يتعصب لها أجداده ويتحيزون ، من غير أن يحتفظ بما كان لهم من إيمان ، واستبقى جهلهم ، من غير أن يراعى ما كان لهم من فضائل ، واتخذ مبدأ المصلحة الشخصية أساساً لكل أفعاله من غير أن يفهم ذلك العلم الذى هو أساس استخدام هذا المبدأ ، فكانت أنانيته لا تقل عما كان عليه من قبل إخلاصه للآخرين .

فإن بدا المجتمع هادئاً فلا يرجع هدوءه هذا إلى شعوره بما له من قوة وما هو فيه من سعادة ، بل يرجع إلى أنه يخشى ضعفه وعجزه ، إذ يخشى أن يبذل مجهوداً يمكن أن يكلفه حياته كلها ، إن كل امرىء يستشعر بالداء ، ولكن لا يوجد لدى أى منهم قدر كاف سواء من الشجاعة أو الهمة على البحث عن العلاج . فالرغبات والمسرات والحسرات لا تؤدى فى الوقت الحاضر إلى شىء مرئى أو دائم ، فما أشبهها بشهوات الشيوخ التى لا تؤدى إلا إلى الضعف والخور .

ولقد نبذنا كل ما خلفته لنا الأوضاع القديمة من خير من غير أن نحصل على ما يمكن أن تقدمه لنا الأوضاع الحاضرة من منافع تعوضنا عما نبذناه . لقد دمرنا مجتمعاً

أرستقراطياً ، ثم وقفنا راضين قانعين وسط أنقاضه نتأملها كأنا عزمنا أمرنا على الوقوف وسطها ثابتين لا نريم .

هذا ، وليست الظواهر التى تتجلى لنا فى دنيا العقل بأقل مدعاة للرثاء والأسى . فقد أقيمت العراقيل فى سبيل الديمقراطية الفرنسية ، أو تركت لأهوائها الجامحة ، فاندفعت تقلب كل ما اعترض طريقها وتدكه ، وتقلقل كل ما لم تستطع أن تقوضه . فسلطان الديمقراطية لم يدخل فرنسا تدريجياً ، ولم يقم فيها بهدوء وسلام ، ومع ذلك فقد كانت تتقدم دائماً وسط الاضطراب والتهيج اللذين ترتبا على الصراع القائم . وفى غمرة المعركة صار كل مشترك فيها يندفع إلى ما وراء الحدود الطبيعية لآرائه ، يحفزه إلى ذلك ما لخصومه من عقائد وتجاوزات إلى أن يفقد رؤية الغاية من جهوده ، ويسير فى طريق لا يتفق وعواطفه الحقيقية ، ولا مع ما فى سريرة نفسه من ميول ، ومن ثم نشأ ذلك الاضطراب الذى اضطررنا إلى مشاهدته .

لا أذكر أن شيئاً فى التاريخ أولى بالشفقة والرثاء من تلك المشاهد التى تجرى الآن تحت سمعنا وبصرنا ، فكأن الرابطة الطبيعية التى تربط آراء الإنسان بأذواقه ، وتربط أفعاله بمبادئه ، قد انفصمت . ويبدو أن الانسجام الذى كان يراعى دائماً بين مشاعر الناس وآرائهم قد زال الآن ، وأن قوانين التمثيل الأخلاق قد أصبحت فى خبر كان .

مازال بيننا كثير من المؤمنين المتحمسين كل التحمس للدين . والذين تشبعت نفوسهم بالأفكار المتصلة بالحياة الأخرى فيسارعون إلى مناصرة قضية الحرية الإنسانية من حيث هى مصدر كل سمو خلقى . فالدين الذى أعلن على الملأ أن الناس جميعهم متساوون فى نظر الله ، لا يسعه إلا أن يقرر أن جميع المواطنين متساوون فى نظر القانون . ولكن ظروفاً وأحداثاً تآمرت تآمراً غريباً فوجد هذا الدين نفسه قد تورط فى وقت ما واتصل بالنظم التى تعمل الديمقراطية على القضاء عليها ، حتى أنه كثيراً ما رفض المساواة التى يحبها وجعل يلعن قضية الحرية بوصفها خصماً له ، وهى تلك القضية التى كان يمكن أن يبارك جهودها لو أنه تحالف معها .

وإلى جانب هؤلاء الرجال المتدينين أرى رجالا اتجهت أنظارهم إلى الأرض بدلا من أن تتوجه إلى السماء . هؤلاء هم أنصار الحرية لا بوصفها مصدر أنبل الفضائل فحسب ، بل لأنها أيضاً أصل لكل المزايا الثابتة . إنهم يودون مخلصين أن يضمنوا سلطانها ، وأن ييسروا وصول نعمها لبنى الإنسان ، فكان طبيعياً أن يسارع هؤلاء الأنصار إلى الاستعانة بالدين . فهم لابد يعلمون أن الحرية لا يمكن أن تقوم بغير مراعاة للأخلاق الطيبة ، وأن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن تقوم من غير إيمان . ولكنهم رأوا الدين فى صفوف خصومهم ، فكان هذا حسبهم ، فبعضهم يهاجمونه جهاراً ، والباقون يخشون أن يدافعوا عنه .

كان أذلاء العقول ، الذين يبيعون ضمائرهم ، يدافعون عن الرق والعبودية فى العصور السالفة ، على حين كان المستقلون وذوو القلوب الكريمة يكافحون مستيئسين فى غير أمل فى سبيل العمل على إنقاذ حرية البشر . وها نحن قد صرنا الآن نرى رجالاً من ذوى الأخلاق السامية الكريمة تُباين آراؤهم ميولهم مباشرة ، فيمدحون تلك العبودية والخسة اللتين لم يعرفوهما قط ، وثم آخرون غيرهم يتحدثون ، على العكس منهم ، عن الحرية ، حديث من يشعر بقدسيتها وجلالها ، ويرفعون عقائرهم يطالبون للإنسانية بحقوق كانوا دائماً يرفضون أن يعترفوا هم بها .

وثم أفراد فضلاء مسالمون أهَّلتهم أخلاقهم الطاهرة ، وعاداتهم الهادئة وثراؤهم العريض ، ومواهبهم العالية لتولى زعامة بنى جنسهم . فحبهم وطنهم حب ، سداه ولحمته الإخلاص ، وهم لايترددون فى القيام بأكبر التضحيات فى سبيل هذا الوطن . ولكن الحضارة كثيراً ماتجدهم مع ذلك فى صفوف خصومها ، فهم يخلطون بين مساوئها ومزاياها ، وفكرة الشر لاتنفصل فى عقولهم عن فكرة البدع المستحدثة .

وإلى جانب هؤلاء نجد آخرين هدفهم أن يجعلوا البشر ماديين ، وأن يؤثروا النافع الذى يحقق أغراضهم من غير أن يعبأوا بما هو عدل وحق ، وأن يحصلوا على المعرفة من غير أن يؤمنوا بها ، وعلى السعادة من غير نظر إلى الفضيلة ، ويدعون أنهم أبطال الحضارة ، وينصبون أنفسهم بكل قحة على رأسها ، وبذلك يكونون قد اغتصبوا مكانة تركت لهم ، وهم بها غير جديرين على الإطلاق .

فأين نحن إذن ؟

إن الرجال المتدينين يناصبون الحرية العداء ، وأنصار الحرية يهاجمون الدين ، وذوو العقول الكبيرة الراجحة يشجعون العبودية ، ولؤماء الناس وأخسهم يدعون إلى الاستقلال ، والمواطنون الأمناء والمستنيرون يعارضون كل تقدم ، على حين أن رجالا خلَوا من كل وطنية ومبادىء يبدون فى لباس رسل الحضارة والفكر .

ترى هل كان هذا حظ الأجيال التى سبقت جيلنا ؟ هل كان الإنسان يعيش دائماً فى مثل دنيانا هذه ، حيث كل شىء فى غير موضعه الذى يجب أن يكون فيه ، وحيث الفضيلة فى غير أهل العبقرية ، وذوو المواهب خلو من الشرف ، وحيث يختلط حب النظام بالميل إلى ذوى البطش ، والاستبداد ، وتختلط عبادة الحرية المقدسة باحتقار القانون ، وحيث الضوء الذى يلقيه الضمير على أفعال الإنسان ضوء فاتر ، وحيث لم يعد شىء يبدو محظوراً ، أو مسموحاً به ، كريماً أو عاراً ، حقاً أو باطلاً ؟

لم يخلق الله الإنسان ليتركه فى كفاح متصل لاآخر له مع ذلك الشقاء العقلى الذى يحيط بنا ، فقد شاء الخالق لشعوب أوربا مستقبلاً أهدأ وأوكد من حاضرها ، لست أدرى

الغيب وما فى علم الله ، إلا أنى سأظل أومن بما فى علمه ما دمت لا أستطيع أن أدرك مداه . وخير لى أن أرتاب فى مقدرتى من أن أتشكك فى عدالة الله .

ليس فى الدنيا غير بلد واحد يبدو أن الثورة الاجتماعية التى أتحدث عنها كادت أن تبلغ فيه أقصى حدودها الطبيعية ، وهى ثورة تمت فيه فى يسر وسهولة ، وبعبارة أخرى يجمل بنا أن نقول أن ذاك البلد ، صار يجنى ثمار هذه الثورة الديمقراطية التى نعانى أمرها الآن ، دون أن تكون هذه الثورة نفسها قد حدثت فعلا .

لقد فصل المهاجرون الذين نزلوا على شواطىء أمريكا واستقروا فيها فى القرن السابع عشر ، بشكل ما ، المبدأ الديمقراطى عن سائر المبادىء التى كان يكافح ضدها فى الدول الأوربية القديمة ، ونقلوه وحده إلى شواطىء الدنيا الجديدة حيث استطاع أن ينتشر فى حرية كاملة وفى هدوء ، وأن يتعاون مع العرف والعادة على التأثير فى القوانين وتعيين صبغتها العامة .

يبدو لى أن لا شك فى أنّا سنصل يوماً ما ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى ما وصلت إليه أمريكا من المساواة فى الأحوال الاجتماعية مساواة تكاد تكون كاملة ، ولست أستنتج من هذا أنّا سنضطر إلى أن نستنبط من تنظيم اجتماعى شبيه بهذا التنظيم النتائج نفسها التى استنبطها الأمريكيون ، فإنى بعيد كل البعد عن أن أظن أنهم قد اختاروا شكل الحكومة الوحيدة الذى يمكن أن تتخذه الديمقراطية . ولكن لما كان السبب الذى يؤدى إلى وضع القوانين والآداب فى كل من البلدين واحداً ، كان من الخير كل الخير لنا أن نعرف ما أحدثه فى كل منهما من تغيير .

لم يكن الأمر إذن مجرد إرضاء لفضول ، قد يكون مشروعاً ، أنى أخذت أدرس أحوال أمريكا ، لقد كنت أود أن أجد فيها علماً يمكن أن نفيد منه ونتنفع به . أما من يتصور أنى قصدت كتابة مدحه ، فقد وقع فى خطأ غريب ، ولسوف يدرك ، بعد قراءة هذا الكتاب ، أن شيئاً من هذا لم يدر بخلدى ، وأنى لم أقصد أن أدافع عن شكل معين من أشكال الحكم أيًّا كان ذلك الشكل . لأنى أرى الجمال المطلق نادراً فى أى نظام من نظم القوانين أيًّا كان ذلك النظام ، ولم أدع حتى إبداء رأى فيما إن كانت الثورة الاجتماعية ، التى أعتقد أنها ثورة طاغية لا قبل لأحد بمقاومتها ، مفيدة لبنى الإنسان ، أو مضرة بهم . لقد اعترفت بهذه الثورة من حيث إنها حقيقة تمت وأنجزت فعلاً ، أو هى على وشك أن تتم . وقد اخترت من بين الأمم التى حدث فيها هذا التطور على أهدأ ما يمكن ، وبلغ فيها أتمه ، وذلك لأتبين نتائجها الطبيعية وأتوصل ، إن استطعت ، إلى الوسائل التى تجعلها نافعة لبنى الإنسان . ولست أخفى أنى رأيت فى أمريكا أكثر من أمريكا وسعيت فيها وراء أن أصوّر الديمقراطية ذاتها بما لها من نزعات وسمات وميول وتحزبات وشهوات حتى أدرك ما علينا أن نخشاه ، وما يحق لنا أن نرجوه من وراء تقدمها .

وحاولت فى الجزء الأول أن أبين الفرق بين ما أتاحته الديمقراطية من طريق - وقد تركت لميولها واتجاهاتها دون قيود على نزعاتها الفطرية - للقوانين تفرضه على الحكومة، وبين ما فرضته بصفة عامة من سلطان على شئون الدولة. لقد عملت على استكشاف الأضرار والمنافع التى أدت إليها، ودرست الاحتياطات التى اتخذها الأمريكيون فى توجيهها، كما درست كذلك تلك التى أغفلوها، وتوليت بيان العوامل التى مكنت لها من أن تحكم المجتمع.

وكان غرضى أن أصور فى جزء ثانٍ الأثر الذى تركه تساوى أحوال الناس الاجتماعية، وقيام الحكومة الديمقراطية، فى المجتمع المدنى فى أمريكا من حيث العرف والآراء والعادات الأخلاقية، إلا أن تحمسى لإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود قد فتر. فقبل أن أنجز ما فرضته على نفسى سيكون عملى هذا قد أصبح غير ذى هدف، فإن شخصاً آخر[1] غيرى يكون قد عرض على القراء بعد قليل من الزمن، سمات الخلق الأمريكى الرئيسية، وتلطف فى رسم صورة جدية، فيكون قد أفاض على الحقيقة روعة ليس فى مقدورى أن أباريه فيها.

لست أدرى إن كنت قد وفّقت فى التعبير عن مشاهداتى فى أمريكا. ومهما يكن من أمر، فإنى واثق من أن هذه كانت رغبتى الخالصة. فلم أحاول قط، على علم منى، أن أصوغ الحقائق على شكل يتفق مع الآراء، بدلاً من أن أصوغ الآراء صياغة تتفق مع الحقائق.

وكنت كلما تيسر إثبات نقطة ما بالوثائق المكتوبة، أحرص إلى النصوص الأصلية، وإلى أصح المؤلفات، وأدقها. وقد ذكرت مراجعى فى الحواشى، وللقارىء أن يستوثق من صحتها إذا شاء[2]. أما فيما يختص بالآراء والعادات السياسية، أو الملاحظات التى بشأن عادات البلاد، فقد حاولت جهدى أن أرجع فيها إلى أكثر الناس علماً بها. وإن كانت النقطة التى أنا بصدد دراستها هامة، أو موضع شك، لم أكتف بشاهد واحد، بل كونت آرائى على أساس جملة ما يدلى به عدد من الشهود، وهنا لا مناص للقارىء من أن يثق بما أقول بالضرورة، فمن اليسير علىَّ أن أكثر من سرد الأسماء المعروفة له أو الجديرة بأن تكون كذلك، تأييداً لما أقول، إلا أنى تحاشيت اتباع هذه الطريقة، إذ كثيراً ما يسمع الغريب وهو فى بيت مضيفه بحقائق لها قيمتها، ولكن صاحب الدار يود أن يخفيها حتى

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى صديقه جستاف دو بومون زميله فى رحلته إلى أمريكا، وقد أصدر بومون كتابه المنتظر هذا فى سنة ١٨٣٥، وكان عنوانه « مارى، أو الرق فى الولايات المتحدة »، ولم يكن له تأثير يذكر.

(٢) الحواشى والمراجع التى يشير إليها المؤلف كثيرة، منها ما ذكره فى هوامش الصفحات، وأغلبها فى ملاحق فى آخر الكتاب، مما يدل على سعة اطلاعه وأمانته وسديد منهجه فى البحث. هذا، وقد أضاف إليها الشراح الكثير، فإن ذكرناها، مع ما نرى ضرورة إضافته من عندنا لتطلب ذلك مجلداً ضخماً.

عن مسامع أصدقائه الحميمين ، وعندئذ يجد الضيف نفسه ملزما بأن يتعزى بالصمت المفروض عليه . ذلك إلى أن قصر المدة التى يقضيها السائح يستبعد كل خوف من تورطه فى أية حماقة من هذا القبيل . ومع ذلك كله ، فقد عنيت بتدوين كل حديث من هذا النوع عقب سماعه . ولكن مذكراتى هذه لن تفارق مكتبى . وإنى لأوثر أن أفشل فيما أقول ، على أن أضيف إلى قائمة أولئك الغرباء الذين يجازون كرم الوفادة بما يضايق المضيف ويسبب له الأسف والأسى .

وعلى الرغم مما بذلت من جهد فى هذا الكتاب فلست أنسى مطلقاً أن ليس أيسر من نقده على من يشاء أن ينقده .

هذا ، والقراء الذين يعنون بدراسة الكتاب العناية الواجبة ، سيجدون فيه فكرة تنتظم أجزاءه كلها وتربطها بعضها ببعض . ولكن تنوع الموضوعات التى علىّ أن أعالجها عظيم . وليس يشق على القارىء أن يجد فى الكتاب حقيقة منعزلة عن سياقها ، تتناقض مع جملة ما فيه من حقائق ، أو يجد رأيا منعزلا يتنافى مع ما قدمت من آراء . ولكننى أرجو منه أن يطالع كتابى هذا بالروح التى أملته على ، واهتديت بها فى عملى كله ، وأن يحكم عليه بما تركه فى نفسه من أثر عام . فإنى لم أقم أحكامى كلها على اعتبار واحد فحسب ، بل أقمتها على جملة ما توافر لى من أدلة وبيانات .

ويجب ألا يغرب عنا أن المؤلف الذى يحرص كل الحرص على أن يفهمه قراؤه ، يجب أن يصل بكل رأى يعن له إلى أقصى ما يفضى إليه من نتائج نظرية ، بل إنه كثيراً ما يرى نفسه مضطراً إلى الوصول به إلى حافة الزائف ، أو غير العملى . فإن كان ضرورياً أن يحيد الإنسان أحياناً فى سلوكه وأفعاله عما تقتضيه قواعد المنطق ، فهذا لايجوز فى الكتابة والتحرير ، فالمرء منا يشق عليه ألا يكون منسجماً فى لغته بقدر ما يعز عليه ألا يكون منسجماً مع نفسه فى سلوكه وفى أخلاقه .

وختاماً ، فإنى أعرض بنفسى فى هذه المقدمة ما قد يعده الكثرة من القراء العيب الرئيسى فى هذا الكتاب . إنه لم يوضع تأييداً لرأى شخص معين ، ولم تكن لدىّ عند وضعه أية نية لأن أخدم به فريقاً من الناس ، ولا أن أهاجم فريقاً آخر ، ولم أقصد أن أرى الأشياء على خلاف ما يراها الناس ، بل كل ما فى الأمر أنى قصدت أن أنظر أبعد مما ينظرون ، فعلى حين أنهم شغلوا أنفسهم بالغد وحده ، وجهت فكرى إلى المستقبل كله .